

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣ - سُورَةُ الزَّخْرَفِ

سميت به لدلالة آيته على أن الدنيا في غاية الخسة في نفسها ، وغاية العداوة مع ربها ، بحيث لا تليق بالأصالة إلا لأعدائه . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايى .
وهي مكية . قيل : إلا آية^(١) (وَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ) وآيها تسع وثمانون .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حَم)

[٢] (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« حَم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى معانيه ومواعظه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَإِنَّهُ وَفِي آيَاتِنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)

« وَإِنَّهُ وَفِي آيَاتِنَا لَعَلِيٌّ » أى رفيع القدر ، بحيث لا رفعة وراءها « حَكِيمٌ » أى ذو الحكمة الجامعة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ)

« أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ » أى أنهم لم يهتموا بنصف عنكم الذكر لإسرافكم . وإنما كانت الحاجة إلى الذكر للإسراف ، إذ لو كانوا على السيرة العادلة والطريقة الوسطى لما احتجج إلى التذكير . بل التذكير يجب عند الإفراط والتفريط . ولهذا بعث الأنبياء في زمان الفترة . قاله القاشاني .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ)

[٧] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

[٨] (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ)

« وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا » أى قوة « وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ » أى سلف فى القرآن فى غير موضع منه ، ذكر قصتهم وحلهم فى تكذيبهم وتعذيبهم وما مثلناه لهم . أى فليتوقع هؤلاء المستهزون من العقوبة مثل ما حل بسلفهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

[١٠] (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

« وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا » أى مهادا تستقرون عليها « وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا » أى طرقا تنطرقونها من بلدة إلى بلدة ، لمعيشكم ومتاجرکم « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى بتلك السبل إلى حيث أردتم من القرى والأمصار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ، كَذَلِكَ

نُخْرِجُونَ)

« وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ » أى بمقدار الحاجة إليه . فلم يجعله طوفانا يهلك ،

ولارذاذا لاينبت، بل غيثا مغيثا « فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا » أى أحيينا به بلدة ميتة من النبات،
قد درست من الجذب وعفت من القحط « كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ » أى من بعد فناءكم
ومصيركم بالأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ
مَا تَرَوْا كَبُونَ)

[١٣] (لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)

[١٤] (وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)

« وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا » أى خلق كل شىء فزوجه، فجعل منه الذكر والأنثى
« وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَوْا كَبُونَ » أى من السفن والبهائم ما تر كبون
« لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » أى مطيقين « وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ »
أى لصائرنا إليه ، وراجعون بعد مماتنا .

تنبیه :

فى (الإكليل) : فى الآية استحباب هذا الذكر عند ركوب الدابة والسفينة . وكان ﷺ
يقوله كلما استوى على راحلته أو دابته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ)

« وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » أى جعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نصيبا . وذلك

قولهم للملائكة (هم بنات الله) قال القاشاني: أى اعترفوا بأنه خالق السموات والأرض ومبدعها وفاطرها. وقد جسموه وجزأوه بإثبات الولد له، الذى هو بعض من الوالد، مماثل له فى النوع، لكونهم ظاهرين جسمانيين، لا يتجاوزون عن رتبة الحس والخيال، ولا يتجردون عن ملابس الجسمانيات، فيدركون الحقائق المجردة والذوات المقدسة، فضلا عن ذات الله تعالى. فكل ما تصوروا وتخيلوا، كان شيئاً جسمانياً. ولهذا كذبوا الأنبياء فى إثبات الآخرة والبعث والنشور، وكل ما يتعلق بالمعاد. إذ لا يتعدى إدراكهم الحياة الدنيا، وعقولهم المحجوبة عن نور الهداية، أمور المعاش. فلا مناسبة أصلاً بين ذواتهم وذوات الأنبياء، إلا فى ظاهر البشرية. فلا حاجة إلى ما وراءها. انتهى «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ مُّبِينٍ» أى لجحودٍ نعم ربه، التى أنعمها عليه. يبين كفرانه لمن تدبر حاله.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٦] (أَمْ أُتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ)

«أَمْ أُتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ» أى: بل اتخذ. والهمزة للإنكار تجهيلاً لهم. وتعميماً من شأنهم، حيث لم يرضوا بأن جعلوا الله من عباده جزءاً، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين وهو الإناث دون الذكور. على أنهم أنقر خلق الله عن الإناث، وأمقتهم لمن. ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن. كأنه قيل: هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة، فرضاً وتمثيلاً، أما تستحيون من الشطط فى القسمة، ومن ادعائكم أنه آتاكم على نفسه بخير الجزأين وأعلها، وترك له شرها وأدناها؟ قاله الزخشرى.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٧] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

«وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا» أى من البنات «ظَلَّ وَجْهُهُ وَهُوَ مُسْوَدًّا» أى من الكآبة والغم والحزن «وَهُوَ كَظِيمٌ» أى مملوء قلبه من الكرب.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَلِيَِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)

« أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَلِيَِّةِ » أى تربي في الزينة ، يعنى البنات « وَهُوَ فِي الْخِصَامِ » أى فى المجدلة « غَيْرُ مُبِينٍ » أى لمن خاصمة ببرهان وحجة ، لعجزه وضعفه . والمعنى : أو من كان كذلك جماعتموه جزءاً لله من خلقه ، وزعمتم أنه نصيبه منهم ؟

تنبيه :

قال الكيما الهراسى : فيه دليل على إباحة الحلى للنساء . وسئل أبو العالية عن الذهب للنساء ، فلم يرَ به بأساً ، وتلا هذه الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)

« وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا » أى جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده ، يسبحونه ويقدمونه ، إناثاً . فقالوا (هم بنات الله) جهلاً منهم بحق الله سبحانه ، وجراءة منهم على قيل الكذب .

قال القاشانى : لما سمعوا من أسلافهم قول الأوائل من الحكماء فى إثبات النفوس المكية وتأنيثهم إياها ، إما باعتبار اللفظ وإما باعتبار تأثيرها وانفعالها عن الأرواح المقدسة العقلية ، مع وصفهم إياها بالقرب من الحضرة الإلهية - توهموا أنوثتها فى الحقيقة ، التى هى بإزاء الذكورة فى الحيوان مع اختصاصها بالله . فجعلوها بنات . وقلما يمتددها العاى إلا صوراً إنسية لطيفة فى غاية الحسن . انتهى . « أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ » أى أحضروا خلق الله إياهم فوصفوهم بذلك لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم ؟ وهو تجهيل لهم ، وتهكم بهم « سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ » أى على الملائكة بما هم مبرءون عنه « وَيُسْأَلُونَ » أى عنها يوم القيامة ، بأن

يأتوا ببرهان على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلا. وفيه من الوعيد ما فيه. لأن كتابتها، والسؤال عنها ، يقتضى العقاب والمجازاة عليها ، وهو المراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

[٢١] (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَمُ هِمَّ بِهِمْ مُسْتَمْسِكُونَ)

« وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَمُ هِمَّ بِهِمْ مُسْتَمْسِكُونَ » هذا بيان لضلالهم آخر، فى جدلهم وخصامهم وتعنتهم . وقد استدل المعتزلة بظاهر الآية فى أنه تعالى لا يشاء الشرور والمعاصى . وأهل السنة تأولوا الآية بما يلاقى العقد الصحيح . وهو عموم مشيئته تعالى لكل شىء ، الناطق به غير ما آية . ولما كانت هذه الآية وأخواتها من معارك الأنظار قديما وحديثا ، آثرت أن أنقل هنا ما لمحققى المفسرين ، جرياً على قاعدتنا فى التقاط تفاسى ما للمتقدم، وتحلية مصنفاتنا بها ، فنقول : قال القاشانى : لما سمعوا من الأنبياء تعليق الأشياء بمشيئة الله تعالى، افترضوه وجملوه ذريعة فى الإنكار . وقالوا ذلك لاعن علم وإيقان ، بل على سبيل العناد والإفحام . ولهذا ردّهم الله تعالى بقوله (مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ) إذ لو علموا ذلك لسكانوا موحدين ، لا ينسبون التأثير إلا إلى الله . فلا يسمعون لإعبداته دون غيره . إذ لا يرون حينئذ لغيره نفعا ولا ضرا (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) لتكذيبهم أنفسهم فى هذا القول بالفعل ، حين عظموهم وخافوهم وخوفوا أنبياءهم من بطشهم ، كما قال قوم هود^(١) (إِنْ نَقُولُ إِلَّا أُعْتِرْنَا بِعُصْفُورٍ) ولما خوفوا إبراهيم عليه السلام كيدهم، أجب بقوله^(٢) (وَلَا

(١) [١١ / هود / ٥٤] . (٢) [٦ / الأنعام / ٨٠] .

أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا) إلى قوله (١) (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ) انتهى .

وفي البيضاوي وحواشيه : إن هذا القول استدلال منهم على امتناع النهي عن عبادة غيره تعالى أو على حسنها . يعنون أن عبادتهم الملائكة بمشيئته تعالى . فيكون مأموراً بها أو حسنة . ويمتنع كونها منهيها عنها أو قبيحة . وهذا الاستدلال باطل . لأن المشيئة لا تسقزم الأمر أو الحسن ، لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض ، حسنا كان أو قبيحا . ولذلك جهلهم في استدلالهم هذا . والحاصل أن الإنكار متوجه إلى جعلهم ذلك دليلا على امتناع النهي عن عبادتهم ، أو على حسنها : لا إلى هذا القول . فإنه ككلمة حق أريد بها باطل . انتهى . وقال الناصر في (الانتصاف) : نحن معاشر أهل السنة نقول : إن كل شيء بمشيئته تعالى ، حتى الضلالة والهدى ، اتباعا لدليل العقل ، وتصديقا لنص النقل . في أمثال قوله تعالى (٢)

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وآية الزخرف هذه لا تريد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيدا ، ولا تفيده إلا تصويبا وتسديدا . فنقول : إذا قال الكافر (لو شاء الله ما كفرت) فهذه كلمة حق أراد بها باطلا ، أما كونها كلمة حق ، فلما مهدناه . وأما كونه أراد بها باطلا ، فراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله ، توها أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل ، أن لا يعاقبه على ذلك . لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته .

ثم قال : فإذا وضع ما قلناه ، فإنما رد الله عليهم مقالاتهم هذه . لأنهم توهموا أنها حجة على الله . فدحض الله حججهم ، وأكذب أمفيهم ، وبين أن مقالاتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض ، فقال (٣) (مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير . وذلك قوله تعالى

(١) [٦ / الأنعام / ٨١] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٣] و [٣٥ / فاطر / ٨] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

في سورة الأنعام^(١) (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مَنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسول ، والإشراك بالله ، اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم^(١) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) فشبّه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال ، بحال أوائلهم . ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب ، فقال^(١) (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقالهم حجة على الله ، أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله^(٢) (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك . لا لأن المقالة في نفسها كذب . فقال^(٢) (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنَكُمْ أَجْمَعِينَ) وهو معنى قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) من حيث أن (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة . فذات الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم . بل شاء ضلالتهم . ولو شاء هدايتهم لما ضلوا . فهذا هو الدين القويم ، والصراف المستقيم ، والنور اللامح والمهيج الواضح . والذي يدحض به حجة هؤلاء ، مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم ، هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيا وتيسرا للهداية وغيرها . من الأفعال الكسبية . حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف . لأنها اختيارية . يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية . فهذه الآية أقامت الحجة . ووضحت ، لمن اصطفاها الله للمعتقدات الصحيحة ، المحجة . ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم في سلك الأفهام الكسبية . فلا جرم أن أفهامهم تبددت . وأفكارهم تبدلت . فقلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه . وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار . وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطراب . أما أهل الحق فنحنهم الله من هدايته قسطا .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

وأرشدهم إلى الطريق الوسطى . فانتهجوا سبل السلام . وساروا ورائد التوفيق لهم إمام . مستضيئين بأنوار العقول المرشدة ، إلى أن جميع الكائنات بقدره الله تعالى ومشيئته . ولم يرغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة . لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة . لكنها قدرة تقارن بلا تأثير . وتميز بين الضروري والاختياري في التصوير . فهذا هو التحقيق . والله ولي التوفيق : انتهى .

وقد سبق في آية (الأنعام) نقول عن الأئمة في الآية مسهبة : فراجعها إن شئت . وقوله تعالى (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ) أي من قبل هذا القرآن (فَهُمْ بِهِ سَمْتَمِسُونَ) أي يعملون به ويدينون بما فيه ويحتجون به عليك . نظير قوله تعالى في الآية الأخرى (١) (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) يعني بالعلم كتابا موحى فيه ذلك . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ)

« بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ » أي لاجحة لهم إلا تقليد آبائهم ، الجملة مثلهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا

آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ » أي كما فعل هؤلاء المشركون من دفاع الحججة بالتقليد ، فعل من قبلهم من أهل الكفر بالله .

قال القاضي : وفيه تسلية له ﷺ ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ، وأن مقلديهم أيضا لم يكن لهم سند منظور فيه . وتخصيص المترفين ، إشعار بأن النعم وحب البطالة ، صرفهم عن النظر إلى التقليد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

« قُلْ » وقرئ قل « أَوْ لَوْ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » أي جاحدون منكرون ، وإن كان أهدي . إفناطا للندير من أن ينظروا أو يتفكروا فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ ، فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

« فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ » أي بعذاب الاستئصال « فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ » أي آخر أمرهم ، مما أصبح مثلا وعبرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » قال القاضي : أي اذكر وقت قوله هذا ، ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل . أوليقلدوه إن لم يكن لهم بدٌّ من التقليد ، فإنه أشرف آبائهم « لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ » أي برئ من عبادتكم أو معبودكم . و (بَرَاءٌ) بفتح الباء الموحدة كما هو قراءة العامة ، مصدر كالطلاق والعقاق ، أريد به معنى الوصف بمبالغة . فلذا أطلق على الواحد وغيره . وقرئ بضم الباء وهو اسم مفرد صفة بمبالغة ، كطوال وكرام ، بضم الطاء والكاف . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)

« إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي » استثناء منقطع أو متصل . على أن (ما) يعمّ أولى العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام . أو (إلا) بمعنى (غير) صفة لـ (ما) . أى إننى برى من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى . أى خلقنى « فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » أى للدين الحق ، واتباع سبيل الرشد . والسين إما للتأكيد ، ويؤيده آية الشعراء (يَهْدِينِ) بدونها . والقصة واحدة ، والمضارع فى الموضعين للاستمرار . وإما للتسويق والاستقبال ، والمراد هداية زائدة على ما كان له أولاً . فيتغاير ما فى الآيتين من الحكاية أو الحكى ، بناء على تكرار قصته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَجَعَلَهَا » أى شهادة التوحيد « كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ » أى موسى بها ، موروثه متداولة محفوظة . كقوله تعالى^(١) (وَوَصَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ بِبَيْتِهِ وَيَعْقُوبَ) « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى لىكى يرجعوا إلى عبادته ، ويلجأوا إلى توحيدهِ فى سائر شؤونهم . أو لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وُحِد منهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ » يعنى أهل مكة « وَآبَاءَهُمْ » أى من قبلهم بالحياة ، فلم أعجلهم على كفرهم « حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ » أى دعوة التوحيد أو القرآن « وَرَسُولٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر الرسالة بالآيات والحجج التى يحتج بها عليهم فى دعوى رسالته .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ)

«وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ» أى جاحدون . فازدادوا في ضلالهم ، لضمهم إلى شركهم ، معاندة الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَاتِ عَظِيمٍ)

«وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَاتِ عَظِيمٍ» أى من إحداهما ، مكة والطائف . فالتعريف للعهد «عَظِيمٍ» أى بالجاه والمال . فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم عندهم . قال القاضي : ولم يعلموا أنها رتبة روحانية . تستدعى عظم النفس ، بالتحلي بالفضائل والكمالات القدسية ، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا ، وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

«أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ» إنكار ، فيه تجهيل وتعجب من تحكيمهم فيما لا يتولاه إلا هو تعالى . والمراد بالرحمة النبوة «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى جعلنا بعضهم غنيا وبعضهم فقيرا «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ» أى بالغنى «فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا» أى مسخرا في العمل ، وما به قوام المعاش ، والوصول إلى المنافع . لا لكمال في الموسع عليه ، ولا لنقص في المقتر عليه . بل لحاجة التضام والتآلف ، التي بها ينتظم شملهم . وأما النفحات الربانية ، والعلوم الدنية ،

فليست مما يستدعى سعة ويسارا . لأنها اختصاص إلهي ، وفيض رحاني ، يمن به على أنفس مستعديه ، وأرواح قابليه . و (السخري) بالضم منسوب إلى السخرة بوزن (غرفة) وهي الاستخدام والتهر على العمل . « وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » يعني أن النبوة خير مما يجمعون من الحطام الفاني . أي : والعظيم من أعطيها وحازها ، وهو النبي ﷺ . لا من حاز الكثير من الشهوات المحبوبة . ثم أشار تعالى إلى حقارة الدنيا عنده ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ

لِئُيُوتَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)

[٣٤] (وَ لِيُؤْتَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ)

[٣٥] (وَزُخْرُفًا ، وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ

رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)

« وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » أي متفقة على الكفر بالله تعالى . أي لولا

كراهة ذلك « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ » أي لتكثير النعم عليه ، مع كفره بالنعم

فيزداد عذابا « لِيُؤْتَهُمْ » بدل من (لِمَنْ) « سُقْفًا » بفتح السين وسكون القاف ، وبضمهما ،

جمعا « مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ » أي مصاعد من فضة « عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ » أي يرتقون « وَ لِيُؤْتَهُمْ

أَبْوَابًا » أي من فضة « وَسُرُرًا » أي من فضة « عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ وَزُخْرُفًا » أي : ولجعلنا

لهم مع ذلك زخرفا ، أي زينة من ذهب وجواهر فوق الفضة . ثم أشار إلى أن لا دلالة

في ذلك على فضيلتهم بقوله « وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أي : وما كل هذه

الأشياء التي ذكرت ، من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسرر من الفضة ، والزخرف ،

إلامتاع يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا « وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » أي : وزين الدار

الآخرة وبهاؤها عند ربك الممتعين ، أى الذين اتقوا الله تخافوا عقابه . فجدوا فى طاعته وحذروا معاصيه خاصة دون غيرهم . قال المهايى : يعنى لاختصاصية فى ذلك المتاع ، بحيث يدل عدمه على عدم منصب النبوة ، وإنما الذى يدل عدمه على عدم النبوة ، التقوى . فالنبوة إنما تكون لمن كمل تقواه . سواء كانت عقده الدنيا أم لا . وإنما كانت الزينة الدنيوية أحق بالكفار ، لأنها تثير ظلمة الأهوية المانعة من رؤية الحق : بحيث يصير صاحبها أعشى . انتهى .

تنبيه :

ما قدمناه من أن معنى (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) على تقدير (لولا كراهة ذلك) وأن معنى كونهم أمة واحدة اجتماعهم على أمر واحد وهو الكفر ، أى أن كراهة الاجتماع على الكفر هى المانعة من تمتيع الكافر بها على الوجه المذكور - هو ما ذكره المفسرون . فورد عليه أنه حين لم يوسع على الكافرين للفتنة التى كان يؤدى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتها الكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ فأجيب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضا ، لما تؤدى إليه من الدخول فى الإسلام لأجل الدنيا . والدخول فى الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين . فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل فى الفريقين أغنياء وفقراء . وغلب الفقر على الغنى . هذا ما قاله الزمخشري .

وعقدى أن لا حاجة لتقدير الكراهة . وأن معنى الآية غير ما ذكره . وذلك أن المعنى : لولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة ، للترافد والتعاون والتضام ، وما به قوام حياتهم كالجسم الواحد ، لجعلنا للناس ما ذكر من الزين والحلى لدخوله تحت القدرة الكاملة . إلا أن ذلك مبطل للحكمة ومخرب لنظام الوجود . وإنما عبّر عن الناس بمن يكفر بالرحمن ، رعاية للأكثر وهم الكفار ؛ فإنهم الذين طبقوا ظهر الأرض وملأوا وجهها . وحطاً لتقدر الدنيا وتصغيرا لشأنها ، بأن تؤتى لمن هو الأدنى منزلة . والأخس قدرا . وخلاصة المعنى : أن خلقهم

أمة واحدة مدنيين بالطبع ، مانع من بسط الدنيا عليهم جميعهم . وهذا هو معنى (لولا) المطرد ، أن ما بعدها أبدا مانع من جوابها . ولذلك يقولون (حرف امتناع لوجود) .
فليس المعنى على ما ذكره أبدا كما يظهر واضحا لمن أنعم النظر . وبالجملة ، فالآية هذه تنمة لما قبلها ، في جواب أولئك الظانين ، أن العظمة الدنيوية تستتبع النبوة . فبين تعالى حكمته في تفاوت الخلق في الآية الأولى . وهي التسخير . وفي الثانية حقارة الدنيا عنده وأنه لولا التسخير لآناها أخط الخلق وأبعدهم منه ، مبالغة في الإعلام بضعفها . وهذا مصداق ماورد من أن الدنيا لاتزن عند الله جناح بعوضة ، وأن ما عنده خير وأبقى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ وَشَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ وَقَرِينٌ)

« وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ » أى يعرض عنه ، فلم يخف سطوته ولم يخش عقابه « نَقِيضٌ لَهُ وَشَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ وَقَرِينٌ » أى يجعل له شيطانا يغويه ويضله عن السبيل القويم دأعا ، لمقارنته له . قال القاشانى : قرئ (يعش) بضم الشين وفتحها : والفرق أن عشا يستعمل إذا نظر نظر العشى لعارض أو متعمدا ، من غير آفة في بصره . وعشى إذا إيف بصره . فعلى الأول معناه : ومن كان له استعداد صافٍ وفطرة سليمة لإدراك ذكر الرحمن ، أى القرآن النازل من عنده وفهم معناه . وعلم كونه حقا ، فتعاضى عنه لغرض دنيوى وبغى وحسد ، أو لم يفهمه ولم يعلم حقيقته ، لاحتجابه بالغواشى الطبيعية ، واشتغاله باللذات الحسية عنه ، أو لا غتراره بدينه وما هو عليه من اعتقاده ومذهبه الباطل (نَقِيضٌ لَهُ وَشَيْطَانًا) جنيا فيغويه بالتسويل والتزيين لما انهمك فيه من اللذات ، وحرص عليه من الزخارف . أو بالشبه والأباطيل المغوية لما اعتسكف عليه بهواه من دينه . أو إنسيا يغويه ويشاركه في أمره ويحانسه في طريقه ويبعده عن الحق . وعلى الثانى معناه . ومن إيف استعداده فى الأصل ، وشقى فى الأزل بعمى القلب عن إدراك حقائق الذكر ، وقصر عن فهم معناه (نَقِيضٌ لَهُ وَشَيْطَانًا) من نفسه أو جنسه ، يقارنه فى ضلالته وغوايته . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ)

« وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ » قال ابن جرير^(١) : أى : وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله ، عن سبيل الحق ، فيزينون لهم الضلالة ، ويكروهون لهم الإيمان بالله ، والعمل بطاعته . « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ » أى يظن هؤلاء المشركون بالله ، بتزيين الشياطين لهم ما هم عليه ، أنهم على الصواب والهدى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بِيَدِي وَإِيَدِيكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ)

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا » أى العاشى « قَالَ » أى لشیطانه « يَا لَيْتَ بِيَدِي وَإِيَدِيكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ » أى بعد المشرق من المغرب . فعاب المشرق على المغرب ، ثم ثنى . وقيل المراد مشرقا الصيف والشتاء . والتقدير من المغربين ، فاختصر . « فَبِئْسَ الْقَرِينُ » قال القاشانى : أى حتى إذا حضر عقابنا اللازم لاعتقاده وأعماله ، والعذاب المستحق لمذهبه ودينه ، تمنى غاية البعد بينه وبين شيطانه الذى أضله عن الحق ، وزين له مواقع بسببه في العذاب ، واستوحش من قرينه واستذمه ، لعدم الوصلة الطبيعية ، أو انقطاع الأسباب بينهما بفساد الآلات البدنية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

« وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » قال القاشانى : أى لن ينفعكم التمنى وقت حلول العذاب واستحقاق العقاب . إذا ثبت وصح ظلمكم في الدنيا ، وتبين عاقبته ، وكشف عن حاله . لأنكم مشتركون في العذاب لا شتراكم في سببه .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب من شدته وإيلامه . أى كما ينفع الواقعين في أمر صعب ، معاوتهم في تحمل أعبائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأُصْمَ أَوْ تَهْدِي الْعُمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأُصْمَ أَوْ تَهْدِي الْعُمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم . وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده تعالى . وقد تكرر فى التنزيل التعبير عنهم بالاصم العمى الضلال ، لأنه لا أجمع من ذلك لشرح حالهم ، ولا أبلغ منه . إذ سلبوا استماع حجج الله وهداه ، كالأصم . وإبصار آيات الله والاعتبار بها ، كالأعمى . وقصد السبيل الأمم ، كالضال الحائر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (فَأِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ)

« فَأِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ » أى نقبضك قبل أن نظهرك عليهم « فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ » أى بالعذاب الأخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (أَوْ نُزِيلَنَّ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ)

« أَوْ نُزِيلَنَّ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ » وهذا كقوله تعالى (١) « فَأِمَّا نُزِيلَنَّ بِمَعْزِلِكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ أَوْ نَقُوفِيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ » وفى تعبيره بالوعد ، وهو لا يخلف الميعاد ، إشارة إلى أنه هو الواقع . وهكذا كان . إذ لم يفتل أحد من صفاديدهم ، إلا من تحصن بالإيمان .

(١) [٤٠ / غافر / ٧٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » يعنى دين الله الذى أمر به وهو الإسلام . فإنه كامل الاستقامة من كل وجه . قال الشهاب : هذا تسليية له ﷺ وأمر لأمرته أوله ، بالدوام على التمسك . والفاء فى جواب شرط مقدر . أى إذا كان أحد هذين واقعا لا محالة ، فاستمسك به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ » أى وإن الذى أوحى إليك لشرف لك ولقومك من قريش . لما خصهم به من نزوله بلسانهم . أو المراد بقومه ، أتباعه . أى تنويه بقدرك وبقدر أمتك ، لما أعطاه لهم بسببه من العلوم والمزايا والخصائص والشرائع الملائمة لسائر الأحوال والأزمان . وجوز أن يراد بالذكر الموعظة « وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » أى عما عملتم فيه ، من ائتماركم بأوامره ، وانتهائكم عن نواهيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءِالِهَةً يُعْبَدُونَ)

« وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءِالِهَةً يُعْبَدُونَ » أى : هل حكمنا بعبادة الأوثان ؟ وهل جاءت فى ملة من ملاتهم ؟ قال القاضى : والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والدلالة على أنه ليس يبدع ابتدعه ، فيكذب ويعادى له . انتهى .

والذين أمر بمسألتهم الرسول ﷺ ، هم مؤمنو أهل الكتابين التوراة والإنجيل .
فالكلام بتقدير مضاف . أى أممهم المؤمنين . أو يجعل سؤالهم بمنزلة سؤال أنبيائهم . لأنهم
إنما يخبرونه عن كتب الرسل . فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا » أى المصدقة له « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » لينهاه عن الاستعباد
« وَمَلَئِهِ » أى لينهاهم عن التعمد له « فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى فأبان أنه
لا يستحق العبادة غيره تعالى ، وأن ليس لأحد سواه استعباد ، لأنها حق الربوبية المطلقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ » فلما أتاهم بالحجج على التوحيد
والبراءة من الشرك ، إذا فرعون وقومه يضحكون . أى كما أن قومك ، مما جثتهم به من
الآيات والعبر ، يسخرون . وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيه ﷺ ، عما كان يلقى من
مشركى قومه . وإعلام منه له أن قومه من أهل الشرك ، لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم
الذين كانوا على منهاجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله . وندب منه نبيه ﷺ إلى الاستئنان
بهم ، بالصبر عليهم ، بسنن أولى العزم من الرسل . وإخبار منه له أن عقبي مردتهم إلى
البوار والهلاك . كسنته فى المتمردين عليهم قبله ، وإظفاره بهم ، وإعلائه أمره . كالذى فعل
بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به . من إظهارهم على فرعون وملئه . أفاده ابن جرير^(١) .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ثم أشار إلى أن موجب الجزء لم يكن إلا لعناد ، لا لقصورها ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٩] (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ)
[٥٠] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

« وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا » أى السابقة عليها « وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ » أى الدينوى كالسنين ، مما يلجى إلى الرجوع ، ولا أقل من رجائه « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ « أى من أنه لا يعذب من آمن بك ليكشف عنا العذاب « إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ » أى بما تزعم أنه الهداية « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ » أى العهد الذى عاهدوا عليه ، ويتبادون في غيهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[٥٢] (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)

[٥٣] (فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)

« وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ » قَالَ يَبْقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي « يعنى أنهار النيل « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى ما أنا فيه من النعيم والخير ، وما فيه موسى من الفقر « أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ » أى ضعيف لا شيء له من الملك

والأموال « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » أى الكلام ، لمخالفة اللغة العبرانية اللغة القبطية « فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » أى يعينونه ويصدقونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ)

[٥٥] (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

« فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ » أى فاستفزهم بهذه المغالطات ، وحملهم على أن يخفوا له ويصدقوه « فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا » أى أغضبونا بطاعة عدونا وقبول مغالطاته بلا دليل ، وتكذيب موسى وآياته ، وندائه بالساحر ، ونكث اليهود « انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ » وذلك لاستغراقهم فى بحر الضلال ، الأجيال الطوال ، وعدم نفع العظة معهم بحال من الأحوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ)

[٥٧] (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونُ)

[٥٨] (وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)

« فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا » أى حجة للهالكين بعدهم « وَمَثَلًا » أى عبرة « لِّلْآخِرِينَ » أى الناجين « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » أى فى كونه كآدم ، كما أشارت له آية (١) (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ وَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) والمعنى : لما بين وصفه الحق من أنه عبد مخلوق منعم عليه بالنبوة ، عبادته كفر ، ودعاؤه شرك ، إذ لم يأذن الله بعبادة غيره « إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ » أى من مثله المضروب ووصفه المبين « يَصِدُونُ » أى يعرضون ولا يعون (وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ » يعنون بألهتهم الملائكة الذين عبدوهم ،

زعموا منهم أنهم بنات الله تعالى . كما ذكر عنهم ذلك في أول السورة . أي أنهم خير من عيسى وأفضل ، لأنهم من الملائكة الأعلى والنوع الأسمى ، فإذا جازت عبادة المفضول وهو عيسى ، فبالأولى عبادة الأفضل وهم الملائكة . كأنهم يقررون على شركهم أصولاً صحيحة . وبينون على تمسكهم أقيسة صريحة . وغفلوا ، لجهلهم ، عن بطلان المقيس والمقيس عليه . وأن البرهان الصادق قام على بطلان عبادة غيره تعالى ، وعلى استحالة التوالد في ذاته العلية . وإذا اتضح الهدى فما وراءه إلا الضلال ، والمشغبة بالجدال . كما قال تعالى « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا » أي ما ضربوا لك هذا القول إلا لأجل الجدل والخصومة ، لا عن اعتقاد ، لظهور بطلانه « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » أي شديدو الخصومة بالباطل تمويهاً وتلبيساً . وفي الحديث^(١) (ماضل قوم يعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) وما ذكرناه في تفسير هذه الآية ، هو الجلي الواضح ، لدلالة السياق والسباق . فقابل بينه وبين ما حكاه الغير وأنصف . ثم جلي شأن عيسى عليه السلام ، بما يرفع كل لبس ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) « إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ » أي بالنبوة والرسالة « وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ » أي آية لهم وحجة عليهم ، بما ظهر على يديه ، مما أيد نبوته ورسالته وصدق دعواه

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ) « وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ » أي بدلهم « مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ » أي يكونون مكانكم . إبعاد لهم بأنهم في قبضة المشيئة في إهلاكهم ، وإبدال من هو خير منهم .

(١) أخرجه الترمذی فی : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤٣ - سورة الزخرف ، عن أبي أمامة .

كما في قوله تعالى^(١): (وَإِنْ تَقُولُوا يُسْتَبَدَّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ) وقيل معنى (لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ) لولدنا منكم ملائكة ، كما ولدنا عيسى من غير أب ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة . واللفظ الكريم يحتمله . إلا أن الأظهر هو الأول ، لما جرت به عادة التنزيل ، من خواتم أمثال ما تقدم ، بنظائر هذا الوعيد ، والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِنَّهُ و لَعَلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُون ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)
 [٦٢] (وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ ، إِنَّهُ و لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« وَإِنَّهُ و لَعَلْمٌ لِّلسَّاعَةِ » الضمير إمالقرآن كما ذهب إليه قوم ، أى وإن القرآن الكريم يعلم بالساعة ويخبر عنها وعن أهوالها . وفي جعله عين العلم ، مبالغة . والعلم بمعنى العلامة . وقيل الضمير لعيسى عليه السلام . أى إن ظهوره من أسرار الساعة . ونزوله إلى الأرض في آخر الزمان دليل على فناء الدنيا . وقال بعضهم : معناه أن عيسى سبب للعلم بها . فإنه هو ومعجزاته من أعظم الدلائل على إمكان البعث . فالآية مجاز مرسل علاقته السببية . إذ أطلق السبب وهو العلم ، وأراد السبب وهو عيسى ومعجزاته . كقولك (أمطرت السماء نباتا) أى مطرا يتسبب عنه النبات . وقرئ (وَإِنَّهُ و لَعَلْمٌ لِّلسَّاعَةِ) بفتححتين . أى أنه كالجبل الذى يهتدى به إلى معرفة الطريق ونحوه . فبعيسى عليه السلام يهتدى إلى طريقة إقامة الدليل على إمكان الساعة وكيفية حصولها . انتهى . وهو جيد « فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ » أى اتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى . أو هو أمر للرسول أن يقوله « هَذَا » أى القرآن ، أو ما أذعوكم إليه « صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ » أى عن الاتباع « إِنَّهُ و لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[٦٤] (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

«وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ» أي من أحكام التوراة وغيرها. كاختلاف اليهود في القيامة، لعدم صراحتها في كتبهم. وقد جاء في نحوها آية^(١) (وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ) وقد وضع عن اليهود شيئاً من إضر التوراة وأغلال الناموس ، كما فعل في يوم السبت . خفف شدة حكمه .

قال بعض المحققين : وإنما لم يقل (ولأبين لكم كل ما تختلفون فيه) لأنه لم يفعل ذلك . بل ترك بيان كثير من الأشياء ، كالفساد الذي دخل في أغلب كتبهم للفارقليط (محمد ﷺ) الذي يأتي بعده ، لعدم استعداد الناس في زمنه لقبول كل شيء منه . كما قال هو نفسه في (إنجيل يوحنا) في الإصحاح السادس عشر . وخصوصاً إذا تمرّض للطعن في كتبهم ، وهي رأس مالهم الوحيد وتراث أجدادهم . ولو فعل ذلك لشك فيه الكثيرون منهم وكذبوه ، ولما اتبعه إلا الأقلون أو النادرون ، فتضيق الفائدة من بمثته التي بينها في المتن . وهي التي بعث من أجلها .

وأما قول الله تعالى عن لسانه^(١) (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ) فالمراد بمثل هذا التعبير ، أنه بمجيئه عليه السلام تحققت نبوات التوراة عنه ، وبه صحت وصدقت . وكلمة (التوراة) تطلق على كتب العهد القديم . فالعنى أن مجيء عيسى كان وفق ما أنبأ به النبيون عنه من قبل . ولولاه لما صدقت تلك النبوات ، فإنها لا تنطبق إلا عليه . وليس المراد أن

(١) [٣ / آل عمران / ٥٠] .

عيسى يقرّ كل ما في التوراة ، كما يتوهم النصارى الآن من مثل هذه الآية. وإلا لما قال بعدها مباشرة^(١) (وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) فكيف يقرّها وهو قد جاء ناسخاً لبعض ما فيها ؟ فتدبر ذلك ولا تكن كهؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون . ويفسرون ما لا يفهمون . انتهى كلامه . وهو وجيه جدا .

« فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ » قال ابن جرير^(٢) : أي إن الله الذي يستوجب علينا إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له ، ربى وربكم جميعا . فاعبدوه وحده لا تشركوا معه في عبادته شيئا . فإنه لا يصح ولا ينبغي أن يعبد شيء سواه « هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » أي هذا الذي أمرتكم به ، من اتقاء الله وطاعته ، وإفراد الله بالألوهية ، هو الطريق القويم . وإذا كان هذا قول عيسى عليه السلام ، فلا عبرة بقول الملحدين فيه والمفترين عليه ما لم يقله . ثم أشار إلى وعيد من خالف الحق بعد وضوحه ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَأُخْتَلِفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ)
 « فَأُخْتَلِفَ الْأَحْزَابُ » أي الفرق المتحزبة اختلافاً نشأ « مِنْ بَيْنِهِمْ » أي لا من قوله تعالى ، ولا من قول عيسى . بل ظلما وعنادا « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ » أي مؤلم من شدة الأهوال وكثرة الفصائح ، وظلمهم بترك النظر في الدلائل العقلية والنقلية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٦٧] (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)

(١) [٣ / آل عمران / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« هَلْ يَنْظُرُونَ » أى قريش « إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *
 الْأَخْلَاءِ يَوْمَئِذٍ » أى المتخالون على المعاصى والفساد، والصدّ عن الحق يوم القيامة « بَعْضُهُمْ
 لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أى معادٍ ، يتبرأ كل من صاحبه « إِلَّا الْمُتَّقِينَ » أى المتصادقين فى طاعة
 الله ومحبته . قال القاشانى : الخلة إما أن تكون خيرية ، أو لا . والخيرية إما أن تكون فى
 الله أو لله ومحبته . وغير الخيرية إما أن يكون سببها اللذة النفسانية أو النفع العقلى . والقسم الأول هو
 المحبة الروحانية الذاتية المستندة إلى تناسب الأرواح فى الأزل، التى قال^(١) فيها (فما تمارف منها
 اثتلف) فهم إذا برزوا فى هذه النشأة ، وتوجهوا إلى الحق ، وتجددوا عن مواد الرجس ،
 فلما تلاقوا تمارفوا، وإذا تمارفوا تحابوا، لتجانسهم الأصلى ، وتوافقهم فى الوجهة والطريقة،
 وتشابههم فى السيرة والغريزة ، وتجردهم عن الأغراض الفاسدة والأعراض الذاتية، التى هى
 سبب العداوة . وانتفع كل منهم بالآخر فى سلوكه وعرفانه . والتذ بلقائه ، وتصفى بصفائه ،
 وتعاونوا فى أمور الدنيا والآخرة . فهى الخلة التامة الحقيقية التى لا تزول أبدا كمحبة الأنبياء
 والأصفياء والأولياء والشهداء . والقسم الثانى هو المحبة القلبية المستندة إلى تناسب الأوصاف
 والأخلاق والسير الفاضلة . ونشأته الاعتقادات والأعمال الصالحة . كمحبة الصالحاء والأبرار
 فيما بينهم . ومحبة العرفاء والأولياء إياهم . ومحبة الأنبياء أممهم . والقسم الثالث هو المحبة
 النفسانية المستندة إلى المذات الحسية والأغراض الجزئية . كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة .
 ومحبة الفجار والفساق المتعاونين فى اكتساب الشهوات واستلاب الأموال . والقسم الرابع
 هو المحبة العقلية المستندة إلى تسهيل أسباب المعاش ، وتيسير المصالح الدنيوية . كمحبة التجار
 والصناع . ومحبة المحسن إليه للمحسن . فكل ما استند إلى غرض فإن سبب زائل ، زال

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٢ - باب الأرواح جنود مجندة ،

الحديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ (طبعنا).

بزواله ، وانقلب عند فقدانه عداوة . لتوقع كل من المتحايين ما اعتاد من صاحبه ، من اللذة المعهودة والنفع المألوف . وامتناعه لزوال سببه . ولما كان الغالب على أهل العالم أحد القسمين الأخيرين ، أطلق الكلام وقال (أَلَا خِلَافٌ يَوْمَئِذٍ لِّبَعْضِ عَدُوِّ إِلَّا الْمُتَمَيِّنِينَ) لا تقطاع أسباب الوصلة بينهم ، وانتفاء الآلات البدنية عنهم ، وامتناع حصول اللذة الحسية والنفع الجسماني وانقلابهما حسرات وآلاما وضرا وخسرانا . قد زالت اللذات والشهوات ، وبقيت العقوبات والتبعات . فكل يمقت صاحبه ويبغضه . لأنه يرى مابه من العذاب ، منه وبسببه . ثم استثنى المتقين المتناولين للقسمين الباقيين لقلوبهم ، كما قال (١) (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) (٢) (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) ولعمري ، إن القسم الأول أعز من الكبريت الأحمر . وهم الكاملون في التقوى ، البالغون إلى نهايتها ، الفائزون بجميع مراتبها . ويليهم القسم الثاني . وكلا القسمين ، لا اشتراكهما في طلب مرضاة الله وطلب ثوابه واجتناب سخطه وعقابه ، نسبههم سبحانه إلى نفسه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)

« يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » أى لأمنهم من العذاب « وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ » أى على فوات لذات الدنيا . لكونهم على الهدى منها وأبهج ، وأحسن حالا وأجمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

(الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ)

«الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا» أى صدقوا بكتاب الله ورسله ، وعملوا بما جاءتهم به رسالهم « وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » أى أهل خضوع لله بتلويحهم ، وقبول منهم لما جاءتهم به رسالهم عن ربهم ، على دين إبراهيم عليه السلام ، حنفاء ، لا يهود ولا نصارى ولا أهل أوثان .

(١) [٣٨ / ص ٢٤] . (٢) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ)

« أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ » أى تُسْرُونَ سرورا يظهر حَبَّارَهُ ، أى أثره على وجوهكم ، كقوله تعالى^(١) (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ

الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[٧٢] (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » الصِّحَافُ جمع (صفحة) وهى آنية الأكل . والأكواب جمع (كوب) وهو ما يشرب منه كالكوز . إلا أن الكوب ما لا عروة له . قال النشباب : العروة ما يمسك منه ويسمى أذنا . ولذا قال من ألغز فيه :

وذى أذنٍ بلا سمعٍ له قلبٌ بلا قلبٍ
إذا استولى على صبٍ فقل ما شئت في الصبِّ

ومن اللطائف هنا ما قيل : إنه لما كانت أواني المأكولات أكثر بالنسبة لأواني المشروب عادة ، جمع الأول جمع كثرة ، والثانى جمع قلة . « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » أى بمشاهدته « وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الخيرات والأعمال الصالحات . وقد شبه ما استحقوقه بأعمالهم الحسنة ، من الجنة ونعيمها الباقي لهم ، بما يخلفه المرء لورثته من الأملاك والأرزاق . ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورث (على صيغة اسم الفاعل) فهو استعارة تبعية أو تمثيلية .

(١) [٨٣ / المطففين / ٢٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ)

« لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ » أى ما اشتبهتم . و (من) إما ابتدائية أو تبعية . ورجح بدلالته على كثرة النعم ، وأنها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنها مزينة بالثمار أبدا ، موقرة بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ)

[٧٥] (لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُّبْسُونَ)

« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ » أى الذين اجترموا الكفر والمعاصى فى الدنيا « فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ » أى لا يخفف ولا ينقص « وَهُمْ فِيهِ مُّبْسُونَ » أى مستسلمون يألسون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ » أى بهذا العذاب « وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ » أى بكفرهم الله ووجودهم توحيداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ)

[٧٨] (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ)

« وَنَادَوْا » أى بعد إدخالهم جهنم « يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » أى ليقضنا . أى سله أن يفعل بنا ذلك . تمنوا تعطيل الحواس وعدم الإحساس ، لشدة التألم بالعذاب الجسماني .

« قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ » أى لا بثون « لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِيهُونَ » أى لا تقبلونه وتنفرون منه . وعبر (بالأكثر) لأن من الأتباع من يكفر تقليدا .

لطيفة :

قال القاشانى : سعى خازن النار (مالكا) لاختصاصه بمن ملك الدنيا وآثرها .
لقوله تعالى (١) « فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى »
كما سعى خازن الجنة (رضوانا) لاختصاصه بمن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمْ أُرْمَوْا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

« أَمْ أُرْمَوْا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ » أى أم أرم مشركو مكة أمراً فأحكموه ،
يكيدون به الحق الذى جاءهم ، فإننا محكمون لهم ما ينجيهم ويذلهم ، من النكال .
كقوله تعالى (١) « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، بَلَىٰ أَوْسَلْنَا لَهُمْ يَكْتُمُونَ)

« أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » أى ما أخفوه من تناجيهم
بما يمكرون ، فلا ينجيهم عليه خلفائه علينا « بَلَىٰ » أى نسمةما ونطلع عليهما
« وَرُسُلُنَا » بمعنى الحفظة « لَهُمْ يَكْتُمُونَ » أى ما تكلموا به ولفظوا من قول .
ثم أشار إلى رد إفكهم فى أن الملائكة بنات الله تعالى ، ختماً للسورة بما بدئت به ، المسمى
عند البديعيين (رد العجز على الصدر) فقال سبحانه :

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٧-٣٩] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ)

« قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ » أى لذلك الولد . والأولية بالنسبة إلى المخاطبين ، لا لمن تقدمهم . قال الشهاب : ولو أبقى على إطلاقه ، على أن المراد إظهار الرغبة والمسارة ، جاز . انتهى .

قال القاشانى : وهذا إما أن يدل على نفي الولد عن الله سبحانه بالبرهان ، وإما أن يدل على نفي الشرك عن الرسول بالمفهوم . أما دلالة على الأول ، فلما دلّ قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » على نفي التالى . وهو عبادة الولد . أى أوحدّه وأنزهه تعالى عما يصفونه من كونه مماثلاً لشيء . لكونه رباً خالقاً للأجسام كلها . فلا يكون من جنسها . فيفيد انتفاء الولد على الطريق البرهاني . وأما دلالة على الثانى فإذا جعل قوله (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ) الخ من كلام الله تعالى ، لا من كلام الرسول ، (أى نزه رب السموات عما يصفونه) فيكون نفيًا للمقدم ويكون تعليق عبادة الرسول من باب التعليق بالمحال . والمعلق بالشرط عند عدمه فحوى بدلالة المفهوم ، أبلغ عند علماء البيان من دلالة المنطوق . كما قال فى استبعاد الرؤية^(١) (فَإِنْ أُسْتَقَرَّ مَسْكَنُهُ وَفَسَوْفَ تَرَانِي) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ)

« فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا » أى فى باطلهم « وَيَلْعَبُوا » أى فى دنياهم « حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ »

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] .

الَّذِي يُوعَدُونَ» قال ابن جرير^(١) : وذلك يوم يُصَلِّبُهُمُ اللَّهُ بِفِرْيَتِهِمْ عَلَيْهِ ، جهنم ، وهو يوم القيامة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

« وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ » أى المعبود فيهما بلا شريك « وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » أى فى تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء بمصالحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ

عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٨٦] (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ وَعِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ » أى الشفاعة لهم عند الله ، كما زعموا أن أندادهم شفعاء « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى من آمن بالله وأقرّ بتوحيده ، وهم يعلمون حقيقة توحيده . أى وحدوه وأخلصوا له على علم منهم ويقين ، كقوله^(٢) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أُرْتَضَى) قال ابن كثير : هذا استثناء منقطع . أى لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده ، بإذنه له . ا هـ .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٤ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] .

تنبيه :

قال الشهاب : استعد الفقهاء بهذه الآية على أن الشهادة لا تكون إلا عن علم ، وأنها تجوز وإن لم يشهد .

وفي (الإكليل) قال إلكيا : يدل قوله تعالى (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) على معنيين : أحدهما - أن الشهادة بالحق غير نافعة إلا مع العلم ، وأن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة . والثاني - أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها ، أن يكون الشاهد عالماً بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

« وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أي : خلقنا لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أي بصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَقِيلِهِ » أي قيل محمد صلوات الله عليه ، شاكياً إلى ربه تبارك وتعالى ، قومه الذين كذبوه وما يلقى منهم « يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ » أي الذين أمرتني بإنذارهم ، وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك « قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ » أي بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر . كقوله تعالى (١) « وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

(١) [٢٥ / الفرقان / ٣٠] .

« فَاصْفَحْ » أى أعرض « عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ » أى لسكم أو عليكم . أو أمرى سلام .
أى متاركة ، فهو سلام متاركة لآتحية .

وقال الرازى : احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر . ثم قال : إن صح هذا الاستدلال فإنه يوجب الافتصار على مجرد قوله (سلام) وأن يقال للمؤمن (سلام عليكم) والمقصود التنبيه على التحية التى تذكر للمسلم والكافر . اهـ .

وفيه نظر ، لأنه جمود على الظاهر البحت هنا ، والغفلة عن نظائره . من نحو قول (١) إبراهيم عليه السلام لأبيه (سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) وآية (٢) (سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) على أن الأكثر على أن الخبر هنا محذوف ، أى (عليكم) والمقدر كالمذكور ، والمحذوف لعله كالثابت . فالصواب أن السلام المتاركة . والله أعلم « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »
أى حقية ما أرسلت به ، بسمو الحق وزهوق الباطل .

تنبيه :

قرئ (وقيله) بالنصب عطفا على (سرهم ونجواهم) وضعف بوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، بما لا يحسن اعتراضا . أو على محل (الساعة) لأنه فى محل نصب ، لأنه مصدر مضاف لمفعوله . أو بإضمار فعله . أى وقال قيله . وقرئ بالجر عطفا على (الساعة) أو الواو للقسام . والجواب محذوف . أى لأفعلن بهم ما أريد ، أو مذكور وهو قوله (إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ) وقرئ بالرفع عطفا على (علم الساعة) بتقدير مضاف . أى وعنده علم قيله . أو مرفوع بالابتداء ، وجمله (يارب) الخ هو الخبر . أو الخبر محذوف . أى وقيله كيت وكيت ، مسموع أو متقبل . وفى (الحواشى) مجازيات جدلية . فازدد بمراجعتها علما .

(١) [١٩ / مريم / ٤٧] . (٢) [٢٨] [القصص / ٥٥] .